Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويبدو أن الجاحظ قد ألف هذا الكتاب لمناهضة هؤلاء الشعوبيين؛ فقد كشف لهم القناع، وفند مزاعمهم ومطاعنهم على العرب في الجزء الثالث وجعل أوله «كتاب العصا» التي كان يحملها العرب في أثناء خطابتهم، وأنكرها عليهم أعداؤهم من العجم، وفي ذلك يقول الدكتور طه حسين[1] (وأصل هذا الباب أن الشعوبية كانوا ينكرون على العرب الخطابة، وينكرون على خطبائهم ما كانوا يصطنعون أثناء خطابتهم من هيئة وشكل وما كانوا يتخذون من أداة، وكانوا يعيبون الى العرب إتخاذ العصا والمخصرة وهم يخطبون. . فكتب الجاحظ كتاب «العصا» ليثبت فيه أن العرب أخطب من العجم، وأن اتخاذ العربي للعصا لا يغض من فنه الخطابي أليست العصا محمودة في القرآن والسنة والتوراة وأحاديث القدماء؟ ومن هنا مضى الجاحظ في تعداد فضائل العصا حتى أنفق فيها سفراً ضخماً).

يعتبر هذا الكتاب ـ من الناحية التاريخية والأدبية ـ من أعظم مصادر الشعر والخطابة والمحاورة والرسائل في الجاهلية والإسلام، نقل عنه الكثيرون كابن قتيبة، وأبي العباس المبرد، وابن عبد ربه، وأبي هلال، والحصري وابن رشيق، وعبد القاهر في كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز، لا غرو أن يعده ابن خلدون أحد أمهات الكتب الأربعة الجامعة كما ذكرنا. ولا غرو أيضاً أن يكافئه عليه ابن أبي دؤاد بخمسة آلاف دينار، حينما أهداه إليه، كما أهدى كتاب الزرع والنخيل إلى إبراهيم الصولي، والحيوان إلى ابن الزيات وإذا كانت أشهر كتبه هكذا قد ارتبطت بهؤلاء الوزراء، فمن اليسير أن نحدد إلى حد ما تاريخها وترتيبها الزمني، وعندها سنرى. . «البيان» مسبوقاً «بالحيوان» سابقاً. . . للزرع والنخيل. . .

لعل من نافلة القول أن نتناول مؤلفات الجاحظ بالإطراء والثناء، وقد شدا بها الزمن، وأشاد بها العلماء والأدباء.

يقول ابن العميد: كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والأدب ثانياً[2]. ويقول

---

(١) في الأدب الجاهلي/١٨٧

(٢) وفيات الأعيان جـ ٣/١٤٢